الحج المكـــي

١ – الاستعدادات

بنهاية الأسبوع الثالث من أبريل ١٩٣١م، كانت قد وصلت آخر مجموعة من سفن الحج – من مصر والسودان، من المغرب وسوريا، من الهند والشرق الأقصى . لقد كان تجمعاً من عدد ضئيل مخيب للآمال، من ٤٠,٠٠٠ زائر من وراء البحار التقوا في مكة، ليتضاعف العدد في الأيام القليلة المقبلة مع قدوم حجاج جدد قادمين من نجد واليمن فضلاً عن الحجاج الحجازيين .

لقد تراوح عدد حجاج الخارج خلال السنوات الخمس السابقة مابين ٨٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ . ويعزى الانخفاض في ١٩٣١م أساساً إلى الكساد الاقتصادي العالمي الذي وسم ذلك العام والأعوام التالية . ففي ١٩٣٢م هبط العدد أكثر عن ذي قبل إلى ٣٠,٠٠٠، وفي العام الذي تلاه إلى مجرد ٢٠,٠٠٠ . وهذا يمثل منتهى الانخفاض، ذلك لأنه في ١٩٣٤م ارتفع عدد القادمين من الخارج إلى ٢٥,٣٧٠ . ومنذ ذلك الحين استمر العدد في تحسن بطيء لكنه مطرد حتى أعادت الحرب الحالية عقارب الساعة إلى الوراء مرة أخرى . ففي العقد السابق للحرب ربما كان معدل حجاج الخارج الذين يزورون مكة كل عام نحو ٣٥,٠٠٠ . وقبل هذه الفترة كان وفود الحجاج من الملايو والهند الشرقية الهولندية[١] وحدهما كثيراً ما يتجاوز ٥٠,٠٠٠ نفس في العام ؛ وقد كان هذا العنصر بصفة خاصة هو الذي تقلص إلى نسب ضئيلة بسبب الهبوط في أسعار السلع التي ينتجونها – السكر والمطاط خاصة .

---

(١) المقصود بها بلاد إندونيسيا وما جاورها والخاضعة في ذلك الوقت للمملكة الهولندية الاستعمارية . (المراجعون).

لم تثبت رؤية هلال التاسع عشر من أبريل[1] في الحجاز، وكان الناس ينتظرون في قلق شديد أخبار ثبوته عند القادمين من أماكن نائية في الصحراء والجبال. ولا يمكن تحديد اليوم الرئيس للاحتفال بالحج - الوقوف عند جبل الرحمة في سهل عرفات الواسع في اليوم التاسع من الشهر القمري ذي الحجة- في غياب مثل هذه المعلومة؛ ولم يبدد الشك إلا يوم الخميس، الثالث والعشرين من أبريل، اليوم الخامس من الشهر، بعد الشهادة الضرورية أمام الهيئات الدينية واعتمادها لها. لقد كان الهلال قد رُئِيَ فعلاً في المساء السابق للتاسع عشر من أبريل، لذا فإن اليوم التاسع من ذي الحجة سيقع في يوم الإثنين، السابع والعشرين. لذا فإنه بالإمكان إعداد العدة للخروج العظيم إلى منى وعرفات. والذين شاءوا التبكير إلى الموقع - والمتعة تحت النجوم حتى الوقوف العظيم - بدأوا التحرك خارجين من مكة بعد صلاة جمعة الرابع والعشرين[2].

وفي تلك الأمسية نفسها بدأ الاحتفال الفعلي بالحج بحفل العشاء الملكي التقليدي في القصر، الذي كان قد دعي إليه ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ضيف، من بينهم أمان الله خان، الملك السابق للأفغان، والأمير أحمد سيف الدين، حفيد السلطان عبد العزيز من بيت بني عثمان، والوزير الأفغاني لدى القاهرة وممثلون آخرون للملك الحالي لأفغانستان الملك نادر خان، والسير أ. ك. غزنوي، من

(١) المقصود هلال شهر ذي الحجة في ذلك العام. (المراجعون).

(٢) أعمال الحج تبدأ في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة (يوم التروية) حيث يذهب الحجاج إلى منى ويقيمون فيها حتى صباح يوم التاسع (يوم عرفة) حيث يتجهون إلى عرفة ثم المبيت في مزدلفة ومنها ينطلقون إلى منى في اليوم العاشر. (المراجعون).

المجلس التنفيذي البنغالي، وآخرون أكثر من أن يذكروا، ممثلون تقريباً لكل قطر ومجموعة تدين بعقيدة الإسلام .

وبعد الفراغ من العشاء بالسرعة الشرقية المعروفة، تجمع الجمع الغفير في قاعة الاستقبال الفسيحة بالقصر ليستمتعوا بإلقاء الشعراء لقصائدهم الشعرية المناسبة لهذه المناسبة - شعراء الجزيرة العربية ومصر . وتلت الخطب الشعر - بالعربية والأوردية، بل وبالإنجليزية من السير أ. ك. غزنوي، الذي بدا غير مدرك، وبلا مبالاة، لعدم مناسبة الأسلوب البرلماني الأوربي ولسان الكافر في مهد الإسلام عشية أروع ذكرى سنوية للعقيدة . كان أحد الخطباء الأوردو، بالمناسبة، قد خاطبه بأمير المؤمنين، اللقب التاريخي لخلفاء الإسلام .

ثم تكلم الملك، الذي ليس في كل الجزيرة العربية، الأرض التي لا تفتقر إلى الفصاحة، من خطيب أكثر منه تمرساً في الخطابة، أو أكثر تواضعاً وبساطة في الأسلوب، ولا أثقل وزناً وأشد تأثيراً في أسلوب خطابته . إنه، لما يربو على ثلاثين سنة من مسئولية متزايدة عن رفاهية مملكة تتسع باطراد، كان دائماً مدركاً للإمامة التي صنعها وضعه الفريد . لقد كان يرتجل الحديث دائماً، بلسان قح صريح النسب من صحرائه، عازفاً بمهارة عن لغة المدارس : متكلماً دائماً من كرسيه، كما يفعل العرب، وبلا حيل خطابية، أو إشارات باليد تقريباً : إنه يهيمن على مستمعيه بالتدرج بهم نحو الذروة بتقريرات منطقية مستندة دائماً على أقوال لعلماء ثقاة من السابقين، معروفين لسامعيه مثلما أنهم معروفون لديه، ولا طعن فيهم . وكما في مثل هذه المناسبة، فإنه حين يواجهه جمهور متنوع الخبرات، معتاد على الصلات المتعددة بالعالم غير الإسلامي وحضارته

المادية، فإنه أدرى من أي شخص آخر كيف يسمو بخطابه عن مستوى منطلقه الأمور الدنيوية إلى مستوى يؤدي فيه الموروث الإسلامي المشترك دوره، بتأثير درامي حاسم. إنه، كإمام للتجمع الإسلامي الحاشد في اجتماعه العام السنوي الوحيد للاحتفال بعيد الحج الأكبر، عليه أن يعطي سامعيه شيئاً ما ملموساً ليتأملوا فيه قبل أن يعودوا لحياتهم اليومية ويغرقوا مرة أخرى في دوامة العالم الكبير الذي منه جاءوا، بينما يظل هو في موقعه مدركاً دائماً لمسئوليته نحو المصلحة العامة. وبالنسبة له، فإنه لاتهاون في الواجب نحو الله، كما أمر به الرسول ﷺ، الذي هو خليفته في كل شيء سوى الاسم[1].

" إخوتي ! لاتظنوا أن هناك ما نخشاه من الكفار، الذين شاء الله في حكمته الخفية أن يجعلهم سادة على عدد كبير من بلاد الإسلام. وذلك بلا شك لابتلائنا. وفي الواقع، إنهم ليسوا من أخشى، ولكنها الانقسامات، الانقسامات السياسية والطائفية، في الإسلام نفسه. إننا منقسمون، وإن لم نجد الوحدة في عقيدتنا فإننا لن ننتصر. هذه رسالتي إليكم، إخوتي في الدين من كل العالم. فلنكن فقط في انسجام، ولن تستطيع قوة ما في العالم الانتصار علينا.

فما هي عقيدتنا ؟ فالإسلام، وبالرغم مما يقال، ليس دين ابن سعود، ولا دين الشريف، ولا دين هذه الطائفة أو تلك. إنه دين الله الذي نعتنقه جميعاً مشتركين، كما نادى به نبيه (عليه الصلاة والسلام) وطبقه أتباعه السلفيون السابقون. وفي هذا كلنا متفقون، وبعون الله الكريم، سيكون ذلك هو الدين

(١) الخلافة ليست بهذا الإطلاق الذي ذكره المؤلف، وإنما هي القيام بأمر المسلمين ورعاية مصالحهم، ودفع الشر عنهم، وإقامة شرائع الله في الأرض. (المراجعون).

الوحيد الذي سيمارس في هذه الأرض المقدسة ما دمت حاكماً لها . أما أفكار كل الطوائف المتضاربة فلا آبه بها، وأطلب منكم، أنتم قادة المجتمعات الإسلامية المختلفة، أن تعملوا معي على رفعة العقيدة الوحيدة الحقة التي نعتقدها كلنا .

أما عن موقفي ذاتي، فالحق، كل من كان مع العقيدة الحقة سيجدني مستعداً لأن أكون خادمه وعونه، ولكن من يكون عليها أو يعمل على إيذائها سيجدني ألد أعدائه . إن وضعي الحالي لم أسع إليه، ولكني لن أتخلى عنه لأحد، إلا لأحد أقدر مني على خدمة عقيدة أضحي من أجلها بنفسي، وأبنائي وأسرتي وكل ما عندي - أجل، وإن كانت في حرب مع ست مئة ألف، عشرات الآلاف من الكفار .

ولكنهم حقيقة ليسوا الكفار، ولكن أنفسنا وعدم وحدتنا، من يجب علينا أن نلوم لوضعنا المهين الحالي . ومهما كان، وفيما يتعلق بالحضارة المادية، ألا نستطيع نحن أيضاً عمل كل ما عملوه إن عملنا بالعزيمة نفسها والطاقة ؟ هل ينهانا ديننا عن بناء المصانع، أن نبحث في الأرض عن ثرواتها المعدنية، أن نجني الثروات، والمعرفة والمهارة ؟ بالتأكيد لا، وفيما يتعلق بي فإني سأطور التقدم المادي لبلدي هذا، بلد العرب، ومولد الإسلام .

ولكن، لينتصر، على الإسلام أن يتوحد وينبذ الطوائف والانقسامات التي تؤخر تقدمه، وتجعل شعبه فريسة سهلة للعدو . ولكننا لن نتقدم في ذلك الاتجاه عندما نجد من قادة الإسلام المعروفين، مثل شوكت علي، مثلاً، ممن يتبعون سبل الكافرين بحديثه، وكما روت عنه الصحف بأنه فعل حديثاً في فلسطين، عن " إخوتنا اليهود ! " . إخوتنا اليهود ! لا، ليس ذاك، ليس ذاك

أبداً، لا، ولا النصارى أيضاً . إن الكلام بمثل هذا معصية لله، ليس لي معها أية مساومة . اتركوا الكافر في ضلاله، واحكموا بينهم بالعدل إن كانوا تحت حكمنا، ولكن أن نعترف بأخوة معهم، لا ! فذاك لن أسمح به . لا، بالتأكيد لا، لا سمح الله !

إنه ليس بمثل هذا الترويج للأساليب الغربية يمكننا تحقيق المساواة مع الغرب . فلنفتخر بعقيدتنا، وبتقاليد الجنس العربي الذي نشر الإسلام في العالم، بشريعتنا الإسلامية وحضارتنا . فلنخلص لكل ذلك، مطورين الفنون والحرف التي سبقتنا بها أوربا والغرب . وحينئذ، وحينئذ فقط سيعيننا الله على تحقيق المساواة مع بقية العالم . ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣] .

وهكذا؛ باختصار شديد كانت خطبة الملك في ضيوفه عشية الحج، بسيطة جداً في معالمها، مباشرة في مناشدتها، بل كخطبة الرسول نفسه والخلفاء الأولين . لقد شهد اليوم التالي خروج الحجاج، في ثياب بيض ورءوس حاسرة، في غاية النشاط إلى عرفات .

وينبغي التوضيح في هذا المقام أن على كل الناس، المؤدين للحج أو الداخلين في حدود مكة بعد أية فترة غياب طويلة عنها، خلع ملابسهم العادية وارتداء لبس الإحرام[1] . وهذا يتكون من قطعتين من القماش أو منشفتين غير مخيطتين (بيضاوين عادة) تلفان، إحداهما حول الخاصرتين والثانية حول الجزء العلوي من الجسم . ويجوز لبس الأحذية أو النعال، ولكن الرأس لايجوز أن

(١) هذا لمن يريد العمرة فقط، لكن من يتردد على مكة، أو جاء لغرض معين غير العمرة فليس ملزماً بالإحرام أو العمرة . (المراجعون) .

تغطى، إلا أنه يجوز حمل مظلة أو وقاء من الشمس إن شاء المرء . ويميل إحرام المرأة إلى التنوع حسب الجنسية . ولكنه من حيث المبدأ قطعة واحدة سابغة تخفي كل جسم المرأة وأي ملابس داخلية لها - وفي هذا ليست هناك قيود من الناحية العملية - من الرأس إلى القدم . والفتحتان الوحيدتان في هذا الغطاء هما فتحتا العينين، اللتان يكون عليهما عادة حجاب خفيف أو نسيج . والإحرام، متى ما لبس للحج، لا يخلع حتى إكمال كل الشعائر المنصوص عليها، كما سيتم توضيحه فيما بعد .

لقد كان الطريق الواسع المخترق للمدينة شرقاً والمجاور لمقبرة المعلاة القديمة والقصر الملكي في المعابدة والمفضي للمسجد الحرام، طيلة اليوم مسرحاً لحركة لا تنتهي، وفي ازدياد دائم وقطارات الجمال حاملة الهوادج، أربعة أو خمسة في صف أفقي أحياناً، تسير حاملة أثقالها، ببطء وتقدم إلى مقصدها، الذي يبعد نحو تسعة أو عشرة أميال . وبين صفوف هؤلاء المسافرين بهذه الكيفية كانت جماعات من الحجاج على الحمير تتخلل طريقها في خطوات أسرع، داخلة في هذا الخليط من الدهماء وخارجة . وبالرغم من ذلك فإن في الطريق العريض مكاناً كافياً للفيالق السائرة على أقدامها، كباراً وشباباً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وبصفة عامة في فرق حاملة رايات متعددة الألوان لتكون مناطق تجمع للجماعات المختلفة، في الطريق وفي سهل عرفات أيضاً في آخر المطاف، الذي بدأ يتحول إلى مدينة من الخيام . وقد أضفت هذه الرايات ومظلات المحفات لمسة من اللون البهيج على اللون البني والأبيض من كتل الأجسام والإحرامات التي كانت تسير وتكاد تكون بلا انقطاع في الطريق . وهنا وهناك تأتي مجموعة ممن وصلوا حديثاً من جهة الشرق، حريصة على

تأدية الشعيرة الخاصة من أول دخول لمكة، فتتصدى للنفير المتجه شرقاً بأقصى سرعة ممكنة في تلك الظروف لبلوغ الحرم، كما يسمى المسجد الكبير في مكة. ومن حين لآخر تأتي سيارة ذات حظوة، تحمل إذناً ممهوراً بيد الملك نفسه - لأن كل حركة السيارات في المدينة ممنوعة بالأمر خلال اليومين الأولين للخروج - تشخر أو تزخر في الزحام، تتحسس طريقها بحذر شرقاً أو غرباً حسب الغرض من رحلة راكبيها. وكلما تقدم اليوم نحو المساء اكتظ الزحام، من الجمال، والحمير، والمشاة. ثم هبطت ظلال الليل على مدينة لاتزال تفرغ المترددين عليها من الناس في سيل لا نهاية له.

٢ - الخروج إلى عرفات

استمرت حشود الحجاج بلا نقصان إلى اليوم الثاني، وهو اليوم التقليدي للخروج، ويعرف بيوم التروية. وبقي الملك وحده وحاشيته، يصرفون مهامهم اليومية حتى الساعة المحددة للتحرك التي كانت في أول الظهر، قال الملك: "إن أمر الحج هذا كالحملة". وهكذا كان بالنسبة له. فمن كل موقع من مسرح العمليات المستمر هذا جاءته التقارير عن السير والأحداث، تنتظر أوامره أو عنايته. فربما يكون ذلك سيارة حاولت تجاوز السرعة المحددة في المدينة أو في الطريق الى عرفات، أو أن سيارة انقلبت بتهور من سائقها وكانت في حاجة لإسعاف ركابها الجرحى؛ أو أن أحد أعضاء الأسرة المالكة، أو موظفاً كبيراً، يطلب وسيلة للمواصلات، وهكذا. وليس هناك من أمر يرى أنه أصغر من أن يحظى باهتمام الملك، الذي كان في كل الأوقات موجهاً نحو إنجاح كل شيء بقدر ما تسمح به الأحوال. وأثناء ذلك كله لم يغادر موقعه في الإدارة العامة التي وصلت مؤقتاً بخط للتلفون مع منى، نحو ثلاثة أميال، وهي الموقع المتقدم للحاج، وكان قد سبق إليه بعض أعضاء الأسرة المالكة ليلاً بالسيارة، ليقيموا في قصر كبير، لكنه بسيط، كان قد شيد قبل ذلك بشهرين، أو كان توسعة كبيرة لمبنى قديم متواضع من السنوات الخالية.

لقد كان مقرراً لي أن أركب مع الملك، ولكن، لعلة ما نتجت عن تأخر جملي، فإني قمت بالرحلة إلى منى في سيارة وزير المالية، وبذلك أتيحت لي فرصة رؤية الطريق الجديد المقرر لكل السيارات لإخلاء الطريق الرئيس للجمال والمشاة. ولم يزل الجمل النجدي نافراً من هدير السيارات، بينما كان أخوه الحجازي قد وطّن نفسه عليها منذ فترة طويلة.

إن طريق السيارات يتابع الوادي إلى الجنوب من منى، والذي فوقه العين الرائعة المبنية من الحجارة للسيدة زبيدة، على مستوى مرتفع من سفوح التلال على اليسار من الطريق الصاعد. وكانت هناك سيارة أو أكثر موحلة في البقع المتفرقة من الرمال التي على المرء المرور فيها في هذا الطريق ؛ بينما كانت هناك سيارة أخرى يبدو أنها انقلبت لسرعتها الشديدة فوق الحجارة المغروزة في الرمال العميقة. وكان ركابها الجرحى جالسين مستظلين بظلها في انتظار النجدة. وفيما عدا ذلك فقد وصلنا منى بسلامة بعد استدارتنا مرة أخرى في آخر الصخور البارزة من الجبل الفاصلة بين الطريقين. لقد كان الملك بمفرده آنذاك في صالات الاستقبالات الواسعة التي بنيت حديثًا ملاصقة لقصر منى، وكانت جمال حرسه الخاص باركة حول المكان، بينما سكن بقية أعضاء الأسرة المالكة في تجمعات من الخيام وضعت تحت تصرفهم.

إن منى، التي كانت قرية مهجورة ٣٥٠ يوماً من السنة القمرية، قد بعثت للحياة فجأة. وأصبح كل بيت من بيوتها غير الكثيرة مكتظاً بالحجاج الذين يدفعون إيجارات باهظة - تبلغ أحياناً نحو ٣٠ أو ٤٠ جنيهاً إسترلينياً للأيام القليلة للاحتفال. لقد تفتق واديها، الواقع بين تلالها السوداء المنخفضة، عن مدينة من الخيام، كما أن الطريق الوحيد، المخترق للقرية ووسط الوادي، كان غاصاً بالمشاة والقوافل الماضية إلى عرفات حيث يفضل معظم الحجاج قضاء الليل، مخالفة للمذهب الحنبلي، ذلك لأن أهل نجد في معظم الأحوال يتبعون السنة فيمضون الليلة الأولى بمنى لصلوات العصر والمغرب والعشاء من ذلك اليوم، ولا يتحركون حتى طلوع الشمس بقدر رمح فوق الأفق من صباح اليوم التالي[1].

(١) السنة في ذلك ما روي عن الرسول ﷺ «أنه صلى بمنى خمس صلوات» وليس ذلك من الواجب بل المستحب أن يخرج محرماً من مكة يوم التروية فيصلي الظهر بمنى، ثم يقيم حتى يصلي الصلوات الخمس ويبيت بها، لأن النبي ﷺ فعل ذلك. (المراجعون).

قدمت وجبة العشاء للملك وصحبه في خيمة ضخمة قرب القصر. وبعد الأكل تجولت في المعسكر والقرية - ولم يكن أمراً سهلاً للجماعات المتحركة من الناس والجمال. وكان القمر يضفي على المنظر سحراً، فلمحت الشياطين "الثلاثة"[1] منصوبة على مسافات في القرية - كل واحد منها عمود من الحجر في سور دائري من الحجارة بأبعاد غير مرتفعة - وقد طليت بالأبيض، في تباين مع لونها الحجري، في العطلة التي كانت بعد الحج الأخير. ويبدو أن تجارة صغار التجار في منى كانت رائجة في السلع غير القيمة التي كان يشتريها الحجاج في مثل هذه المناسبة - أشياء تذكارية، مواد غذائية ومياه.

لقد أمرت بأن يوضع سريري قرب الطريق الرئيس على حافة الأرض المرتفعة المجاورة للقصر. وبينما أنا أغفو لأنام تحت النجوم بلا غطاء فوقي سوى ملابس الإحرام، مرَّ بي القطار المرعب في طريقه إلى عرفات، فضج الليل كله بهمهمة شاكية، ما بين الرغاء والخوار للجمال، وطنين السيارات. لم يكن هناك أقل من ٥٠٠ سيارة هي الأسطول المخصص لنقل الأسرة الملكية إلى وجهتها. نسائها وخدمها وأطفالها إلا طلالاً، الذي لم يتجاوز عامه الأول، وهو الابن الأصغر للملك من بين أبنائه الذين يربون على الخمسين[2].

في مثل هذه المناسبة في الشرق ليست هناك ساعات معلومة للنوم. إن كثيرين ينامون فعلاً، بما في ذلك نفسي، ولكن نومنا لم يؤثر على ما تعودناه، فقد كنت أصحو في الثالثة صباحاً لصلاة الصبح في القاعة الكبرى للاستقبالات.

---

(١) من الخطأ تسميتها بالشياطين، وإنما هي: الجمرات: العقبة الأولى -الوسطى- والكبرى. (المراجعون).

(٢) بلغ عدد أبناء الملك عبدالعزيز ٣٦ ابناً وعدد البنات ٢٧ بنتاً. انظر عبدالرحمن الرويشد. الجداول الأسرية لسلالات العائلة المالكة السعودية. (الرياض، ١٤١٩هـ)، ص٢٣. (المراجعون).

وبما أن الوقت بعد الصلاة لايزال مبكراً قبل شروق الشمس، فإن الملك، كعادته التي درج عليها، يكون غارقاً في تلاوة القرآن الكريم، بينما نحن جلوس نشرب الشاي والقهوة.

يروى عن الرسول ﷺ أنه حبب إليه ثلاث متع - النساء والطيب والطعام - وأنه كان له نصيب وافر من الأولين وفرص أقل من الثالث[1]. إن الرجل الذي يرتدي عباءته في الجزيرة العربية اليوم[2] يقر بتجربة كاملة ومعرفة بالنساء وأجمل الطيب، أما الطعام والنوم فإنه غريب عنهما. إن زهده في أول هذين رغب لضيوفه الذين عليهم الاستعجال في الأكل لينهضوا شبعى حين يغادر المائدة؛ أما النوم فإنه بالإمكان القول إن ابن سعود لايعرف شيئاً من متعه. ومن هذه الناحية فإنه عود نفسه على أدنى مقاديره، مما أصبح طبيعة فيه، ولكن ذلك لايعطيه الراحة الضرورية لعقل لايعرف السكون.

وحين بدأ ضوء النهار يخترق ضباب الوادي من وراء التلال السوداء، بدأ إنهاض الجمال الباركة أمام باب القصر. وفي لحظة ثانية كنا جميعاً على سروجها، وتحركت مجموعة الملك نحو أسفل الوادي، وسرعان ما انضمت القوافل الأخرى في موكب رهيب. لم يكن هناك أقل من ١٠٠٠٠ جمل خلف الملك ذلك الصباح، يوم الحج. وفي هدوء مع بعض الغلظة سار الموكب في الوادي كالسيل، والشمس ترتفع قليلاً قليلاً حتى بلغت ذروتها مطلة من قمم التلال على ضباب من الغبار المعلق في الجو. وبمئذنة مزدلفة الوحيدة مررنا

(١) ما روي عن الرسول ﷺ في هذا المجال «عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ حبب إليَّ من الدنيا: النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة» مسند الإمام أحمد ج ٣ ص١٢٨. (المراجعون).

(٢) المقصود الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

حتى دخلنا وادي المأزمين[1] الضيق إلى بازان صهاريج المياه، حيث علقت عين زبيدة عبر الطريق. ثم جئنا إلى العمودين اللذين يحددان حرم مكة. ووراءهما تقع المنطقة المدنية، أو المحايدة، المسماة وادي عرنة[2]، وفيها مسجد نمرة، وهو سور أبيض، بحيطانه دعامات، ولا مئذنة له. ففي هذا المكان المحايد، الذي علمت حدوده البعيدة نحو سهل عرفات بأعمدة أخرى، أنخنا أسوة بسنة الرسول ﷺ وانتظرنا حتى العصر. وكانت الخيام قد نصبت قبل وصولنا، وشرعنا في تناول إفطار خفيف لم نكن زاهدين فيه، وبعده أصبحت الغفوة، أو النوم إن أمكن، الشيء الغالب.

وأمامنا، غير بعيد، كان جبل الرحمة، أهم معالم سهل عرفات، واقفاً ظاهراً يعلوه عموده الأبيض الذي يحدد موضع مدينة الخيام التي قامت أثناء الليلة الفائتة لإيواء الحجاج. وحولنا من كل الجهات كان وادي عرنة بخيام متفرقة، بينما جماعات ضخمة من الحجاج، معظمهم أفارقة سود من أصقاع نائية، استقرت في مسجد نمرة وآباره الغنية. وبدأ النهار يحتر، مولداً حرارة في الظهيرة، ليبددها فيما بعد بنسمات خفيفة تمس في رقة أجسامنا المكسوة بالقليل من الثياب[3] ونحن مجتمعون في الظلال الكريمة للخيام. لقد كان الماء كثيراً، بل والثلج أيضاً، من القصر الملكي.

نام الملك لمدة قصيرة، وبعد الظهر بقليل دعينا إلى خيمة الملك لتناول الغداء المكون من لحم الضأن والأرز وأشياء صغيرة أخرى، وبعدها مشينا عبر رقعة الرمال -التي كانت الآن كالنار للأقدام الحافية مما اقتضى لبس الصنادل- إلى

(١) المأزمين: طريق ضيق يدفع معه الحجاج من عرفة إلى مزدلفة. (المراجعون).

(٢) والمقصود بعبارات «المنطقة المدنية أو المحايدة» أي منطقة الحل. (المراجعون).

(٣) المقصود ثياب الإحرام. (المراجعون).

مسجد نمرة، حيث فسح لنا الجمع الغفير المنتظر الصلاة طريقاً وصلنا به إلى أماكننا قرب المنبر والمحراب.

إن صلاة الظهر[1] في مسجد نمرة، في تلك البقعة من الوادي غير الحرام، الفاصلة بين منى وعرفات، نسك مهم عند من يقتفي سنة الرسول محمد ﷺ في حجته الوحيدة[2] التي قام بها قبل وفاته بشهور. إن ساحة المسجد برواقه الضيق في جهة القبلة يوفر مكاناً واسعاً لحشد كبير من المصلين. ولكن عاماً بعد عام تتكرر المشكلة نفسها. إن عدداً ضخماً من الحجاج يتخذون أماكنهم في المسجد في ساعة مبكرة من يوم الحج، كما أن بعضهم يمضي ليلة الحج مخيمين في منطقة المسجد، وبجوارهم كل أمتعتهم وأغراضهم. لذا فإن المرء لايجد بوصة واحدة خالية حين يأتي وقت الصلاة، فكان على الموكب الملكي، المكون من الملك، وإمام مكة[3]، والأمراء الملكيين، ووزراء الدولة والآخرين، يتقدمهم ويليهم حشد من الخدم والأتباع، أن يشقوا طريقهم شقّاً بين هذا الجمع الغفير إلى الأماكن المخصصة لهم في الرواق. لقد كانوا كالسفينة تشق طريقها بين الأعشاب في بحر سرقسطة.

تبعت الملك بمعاناة لأجد أن المكان حول المنبر مزدحم إلى درجة استحالت معه الصلاة بصورة صحيحة. فظللت واقفاً - لعدم وجود مكان للجلوس- في كتلة من البشر، في حر وعرق. استمعت إلى الخطبة. أما الصلاة التي أعقبتها فقد كانت فوق الوصف، إذ لم يكن هناك مكان للركوع بين المصلين المتلاصقين، فقد كانت جباه المصلين في صف تصطدم بأعجاز المصلين في

(١) يقصد صلاتي الظهر والعصر. (المراجعون).

(٢) المقصود «حجة الوداع». (المراجعون).

(٣) المقصود إمام المسجد الحرام. (المراجعون).

الصف الذي أمامه بدلاً من بلوغ الأرض كما هو مفروض، وفي حالة من مثل هذه الحالات جاورني في الصف رجل كان من الورع بمكان بحيث يرى أن صلاة كهذه غير مقبولة عند الله، فهمس في أذني بصوت عالٍ قائلاً إنه سيعيدها منفرداً لإرضاء نفسه.

لقد أرضيت نفسي بالاعتقاد بأن شيئاً من التكلم في الصلاة كان سيخفف كثيراً من المعاناة البدنية والزعزعة الروحية. لكن معظم المصلين كانوا منصرفين تماماً إلى سماع الخطبة. وكان قريباً مني رجل لفت نظري بإصداره صوتاً كفحيح الثعبان، بدا وكأنه يخرج من بطنه الضخم، انتهى برعشة شديدة هزت الرداء على كتفيه، وجعلته فجأة في حالة من الراحة التامة. لقد كان أداءً رائعاً حقّاً.

كان قد ألقى الخطبة الشيخ عبد الله بن حسن، شيخ أئمة مكة[1]، الذي صعد درجات المنبر البسيط في شكله، وفي يده عصا، وانطلق يشرح ببعض التفصيل أوامر الرسول ﷺ عن الحج. ومن حين لآخر كان المصلون يبكون أو يدمعون عندما يذكَّرون بحجة الوداع في ٦٣٢م - ما يكاد يكون ١٣٠٠ سنة خلت بالتحديد - وكان قريباً مني رجل هندي مسن، دخل في نوبة من التنهدات، وبدأ المرء يشعر بوحدة بينه وبين إخوته المصلين، بنوع من الجلال لمناسبة قدر لها أن تحيي في نفوس الناس قصة وحي بلغ ذروته في هذه البقعة بعينها منذ قرون طويلة خلت لإكمال الدين الذي انتشر في الفترة الفاصلة بين المناسبتين إلى أماكن نائية خارج حدود الجزيرة العربية، ليكون نوراً يهدي ملايين وملايين في آسيا وإفريقيا، بل وأوربا أيضاً.

---

(١) الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ، إمام وخطيب المسجد الحرام، عيّنه الملك عبدالعزيز سنة ١٣٤٦هـ رئيساً للقضاة، ثم أسند إليه مهمة الإشراف على الحرمين الشريفين وغيرها من المهام الشرعية، وكان خطيباً في نمرة مواسم الحج، وقد توفي عام ١٣٧٨هـ. (المراجعون).

لقد كانت هذه الخطبة، في أيام الأتراك والأشراف، وفيما يبدو تمثل جزءاً من الاحتفال بالوقوف في عرفات، تلقى من على ظهر جمل، أو من على جبل الرحمة نفسه، أو بالقرب منه، وفي وسط المحمل وغيره من المراسم ومظاهر العظمة الدنيوية التي غدت في طي النسيان الآن.

إن كلمة "محمل" المقرونة بالحج تستخدم للإشارة الى الهودج المحمول على الجمال الذي يرسل سنوياً مع قوافل الحج من دمشق أو القاهرة من طرف سلطان تركيا أو خديوي مصر، كرمز للسيادة التي يدعيانها على المدينتين المقدستين بالحجاز - والخديوي بالطبع هو والي السلطان حتى الحرب العظمى (الأولى) - ويقال إن بداية فكرته كانت عبارة عن تلك الاستعدادات التي قامت بها الأميرة المصرية (أو التركية) لحجها، ولم تستطع إتمامه لسبب ما، فأصرت على إرسال هودجها كاملاً بما فيه من نفائس، هدية إلى الحرمين في مكة والمدينة، كبديل عن حجها. ومن ذلك التاريخ أصبح المحمل رمزاً رسمياً لسيادة السلطان - الخليفة ووالية حتى ١٩٢٦م، حين أدى استعادة الحاكم السعودي للحجاز[١]، واتخاذه اللقب الملكي، إلى تجريد المحمل من كل معانيه - إن المحمل الشامي، الذي كان رافقه داوتي إلى الجزيرة العربية في ١٨٧٦م، كان قد توقف قبل مجيء السعوديين بمدة طويلة. وبالرغم من ذلك فإن المحمل المصري وصل في موعده إلى منى في ١٩٢٦م، أثناء الحج. وكان وصوله مصدر امتعاض السعوديين الملتزمين، مما أدى لبعض الاضطرابات، وتبادل

(١) الحجاز كان تابعاً للدولة السعودية الأولى ثم فقدته بسبب حملات والي مصر محمد علي باشا الذي أنهى حكم هذه الدولة. واستعاده الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

لإطلاق النار[1]. وكانت هذه هي نهاية المحمل المصري، وبداية لفترة برود بين الحكومتين السعودية والمصرية. وفي نهاية الأمر سويت المسألة بما يرضي الطرفين، وكدلالة على ذلك سمح للمحمل المصري أن يزور الحجاز مرة واحدة بعد ذلك، كانت الأخيرة، ولم يسمح له بتجاوز جدة. ولاستنفاده غرضه كشهادة واضحة على تحسن العلاقات بين الحكومتين، فإنه أوقف بمبادرة من الحكومة المصرية احتراماً لمشاعر السعوديين.

وعوداً من هذه الاستطرادة إلى خطبة نمرة، فإنها تلتها صلاتا الظهر والعصر معاً، جمعاً أسوة بسنة الرسول ﷺ، وأمَّ الناس الشيخ عبد الله من مكانه أمام المحراب، أو التجويف المتجه نحو مكة. وتفرق الجمع بعد ذلك وتدفق خارجاً من المسجد. وعدنا إلى خيامنا، وهناك جاء لزيارة الملك الحجاج الهنود وغيرهم، رغبة منهم في تحية أمير المؤمنين. وقدمت لهم القهوة والطعام، وبعد الواحدة ظهراً بقليل كان الملك على سرجه مرة أخرى ومعه حرسه الشخصي متوجهين للاحتفال الختامي[2] بالوقوف في عرفات.

لقد كان الحرس الملكي في هذه المرة مكوناً تكويناً خالصاً من رجاله من نجد، نحواً من ٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل - رجال أقوياء، تبدو عليهم الشدة، كلهم محرمون كسائر الحجاج في ثيابهم البيضاء، ولكنهم يتميزون عنهم بحملهم البنادق، وأحزمة الرصاص، والسيوف والخناجر. وفيما بعد رئي أنه من

(١) الدولة السعودية منذ قيامها وحتى الوقت الحاضر حريصة على تطهير شعائر الحج مما ينافيها من البدع والطقوس غير المستندة إلى القرآن والسنة. ولا شك أن حصول مثل هذه البدع أمر لا يليق بالحج ولا غيره وهو يجرح شعور كل مسلم غيور على إسلامه (المراجعون).

(٢) المقصود إتمام مناسك يوم عرفة. (المراجعون).

المناسب لهيبة الملك أن يستبدل هؤلاء بجنود " نظاميين " أعدوا بالأساليب الأوربية، ودربوا على فنون التحية العسكرية وضبط الأرجل. وأثناء الحج لابد للجنود النظاميين أيضاً من خلع ملابسهم العسكرية وارتداء ثياب الإحرام، لذا فإن الاختلاف بين النوعين لايظهر إلا للعين الفاحصة المدربة، التي تميز بسهولة بين الجندي تنشئة المدينة والتابع تنشئة البادية. وبالرغم من ذلك، ومن وجود الحرس الرسمي المرافق للملك، فإن الحرس القديم لم ينحل، لوجوده دائماً في مكان ما قريباً من مكان الملك، لحمايته من كل سوء.

إن جبل الرحمة، وأهم سماته تل منخفض من الجرانيت من ١٠٠ إلى ١٥٠ قدماً في الارتفاع وعمود أبيض يعلوه، في واقع الأمر سلسلة من ثلاث قمم، تنحدر سفوحه المغطاة في حقة في شبه دائرة تحيط بها من الخارج عين زبيدة المبنية من الحجارة. وخارج المنطقة الجبلية هذه، جنوباً وغرباً، سهل عرفات، بمدينته المؤقتة من الخيام. وكل هذه المنطقة، حتى حدود وادي عرنة منطقة وقوف، ولكن كتلة منخفضة من الصخور على الجانب الجنوبي من الساحة الموصوفة أعلاه يعتقد أنها البقعة التي وقف فيها النبي ﷺ يوم عرفة بمناسبة حجة الوداع. لذا فهنا الموقف التقليدي لأهل نجد، وفي هذا الفضاء اجتمعوا في آلافهم وعشرات آلافهم منذ الساعة الثانية بعد الظهر، حتى جاء الملك واتخذ موقعه ومعه جماعته براياتهم السعودية الخضراء ترفرف وسطهم. وظل كل رجل منهم راكباً على جمله متجهاً، لا نحو الجبل (وهو شيء إلى حد ما مباح)، وإنما تجاه القبلة، الكعبة في مكة. وكانت بين الجموع أيضاً الهوادج المغطاة للنساء، محجوبة عن عيون الرجال. وفي لباس الإحرام البسيط، بلا مظلة تفسد المنظر (بينما كانت شيئاً مألوفاً بين العناصر غير النجدية في

السهل) ظلت المجموعة الضخمة طيلة العصر من الثانية بعد الظهر إلى مغرب الشمس تدعو الأدعية المأثورة لهذه المناسبة، دعاء متصلاً لا نهاية له بالعفو من الله وغفران الذنوب. وعلى رأس المجموعة النجدية، عاري الرأس كالآخرين، وقف الملك، بجانبيه إخوانه وأبناؤه، يقرأون في "كتاب الكلمات" الذي نشره لإرشاد الحشد[1].

وفي الأماكن الأخرى من السهل الواسع، التي انتهزت الفرصة لزيارتها في العصر، كان هناك جو أشبه بالاحتفال. فقد آثر بعض الناس البقاء في خيامهم على مواجهة أشعة الشمس الساقطة - إنها شديدة الحرارة في تلك الظروف بالرغم من هبوب نسمة باردة جافة خففت كثيراً من شدة التعب وإن كان ذلك في الفضاء. وكان الناس، الأفقر حالاً، قد جاءوا معهم بسعف النخيل، وغطوها بالأكياس الفارغة يستظلون بها، بينما كان الزنوج من إفريقيا متجمعين في طرفي الجبل وبمحاذاة عين زبيدة، ومنها حصلوا على الماء لشرابهم ووضوئهم.

إن هذا العنصر الإفريقي، المعروفين بلفظة عامة هي "تكروني" جمعها "تكارنة" وإن شملوا قبائل مختلفة من القارة السوداء - بعيدة بعضها عن بعض كما بين السودان ونيجيريا - مثير جداً. فالتكارنة، بطبيعة الحال، كلهم مسلمون، لكنهم يحتفظون ببقايا غريبة من محظوراتهم وعاداتهم. ففي مرة من المرات، على سبيل المثال، مررت بمجموعة من النساء يحفرن بعناية

(١) ربما أن المؤلف يقصد كتاب «تحفة الناسك بأحكام المناسك» لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، الذي طبع أول مرة على نفقة الملك عبدالعزيز في مطبعة أم القرى في ١٧ شوال ١٣٤٣هـ وأعيد طباعته سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م وهي السنة التي حج فيها المؤلف. (المراجعون).

حفراً غير عميقة في الرمال ليدفن فيها خصلات من شعرهن مما كان يتقطع بالتمشيط، وربما كان حصيلة أسابيع أو شهور - ربما كان ذلك اعتقاداً خرافيّاً منهن بأن دفن شعرهن في الأرض المقدسة يهبهن متعة المحبة الدائمة. ثم أثناء فترة الوقوف، نحو منتصف العصر، شاهدت موكباً منظماً من بضع مئات من أولئك الأفارقة، يخترق مدينة الخيام باتجاه جبل الرحمة، حيث توقفوا في مستوياته الدنيا، في صفوف متلاصقة، يترنمون بأدعيتهم الخاصة في سرعة فائقة. وربما كانوا في العهود السابقة يفعلون ذلك على قمة الجبل، التي حيل بينهم وبينها الآن في ظل الحكم السعودي[1]، الذي ينهى عن أداء مثل هذه الأشياء، بصفة عامة. ولتنفيذ النهي، فإن الحرس قد اصطفوا حول الجبل، وفي منتصف ارتفاعه. ولكن في مرة من المرات لمحت رجلاً، يبدو أنه زعيم من زعمائهم الدينيين أفلت من الحصار ووقف على رأس جبل الرحمة -قريباً من العمود- وأخذ يلوح بيديه كأنه يقود فرقة تنشد شيئاً ما أو يلقي خطبة، وقد تعذر سماع أي شيء منها بسبب ضجيج الناس، وسرعان ما تنبه الحراس لوجوده في المنطقة المحرمة، ثم اختفى فجأة ولا أدري كيف، وأين.

إن معظم هؤلاء التكارنة يمضون سنوات في رحلتهم من ديارهم إلى مكة؛ وبصفة عامة، فإنهم يعملون أثناء الطريق مخترقين القارة الإفريقية، وأحايين كثيرة يقضون بضع سنوات في مزارع القطن بالسودان. وفي مرة لقيت رجلاً وزوجته، كانا قد بدآ رحلتهما ومعهما طفل واحد، فأصبحوا أسرة من ستة بعد انتهاء الحج - وكانت رحلتهم آنذاك قد استغرقت أربع عشرة سنة. لكن أوقر من لقيته من الحجاج التكارنة كان رجلاً عجوزاً قوي البنية، ادعى أن عمره

(١) كان هناك كثير من الأمور البدعية التي يقوم بها الحجاج جهلاً منهم، وقد منعت الدولة السعودية الكثير من هذه الأمور والأعمال البدعية التي تتنافى مع السنة المطهرة بناء على ما قرره علماء الشرع. (المراجعون).

١٢٠ سنة، وأنه قضى ما لا يقل عن سبعين سنة في الطريق من لاغوس إلى جدة، حيث لقيته في ١٩٣٠م. لقد أمضى عمره كله في دراسة الدين والفلسفة الإسلامية، وشملت رحلته الطويلة إقامات طويلة أيضاً في المراكز العلمية المختلفة التي كانت في طريقه. وبعد مساءلة دقيقة استخرجت منه معلومة مثيرة، هي أنه كان في الخرطوم حين قتل جوردن باشا بأيدي قوات المهدي.

وبصفة عامة كان هناك خلو لافت للنظر من أي برنامج رسمي للأحداث في عرفات. لقد كان الناس أحراراً في فعل ما راق لهم، ما داموا قد خيموا في الوادي في الساعات المفروضة عملاً وأداءً للركن المعروف باسم " الوقوف ".

لقد كان للجماعة المصرية طقسها الخاص بها، كما يتوقع المرء. فخلال تجوالي لحظت تجمعاً كبيراً من رجال ونساء - الواضح أنهم فرقة من نوع ما - اصطفوا في صفوف خلف منشد لهم، مديرين ظهورهم لمكة ووجوههم لجبل الرحمة، وهم يرددون في وحدة تامة العبارات التي ينشدها رئيسهم ويلوحون بمناديلهم نحو جبل الرحمة. من الواضح أن هذا أحد الطقوس الموروثة من زمن المحمل. ولم يأبه أحد بما كانوا يفعلون، ذلك لأن فيالق السعوديين - وهم فيالق فعلاً - كانت على الجانب الآخر من الجبل، بعيدين جداً عن الأعين. وفي الأماكن الأخرى واصلت الجموع الواقفة عبادتها في مجموعات من عشرين أو ثلاثين شخصاً في خيمها الكبيرة أو مظلاتها، أو جلست تشرب الشاي، أو تنام خلال ساعات العناء حتى الغروب.

لعل الوقوف بعرفات أيام الأتراك والأشراف كان مختلفاً تماماً، حين كان الوقوف في شكل شعيرة منظمة، تتخلل الخطبة طلقات المدافع أو أشياء أخرى. أما الآن فما على المرء إلا أن يتجه إلى مكة ليدرك أن روحاً جديدة قد

دخلت في الوقوف على عرفات - هي إيمان بالغرض الأساسي من الحج وبالواجب الإنساني بالخضوع والصبر، وهما الوحيدان اللذان يجعلانه مقبولاً عند الله[1].

وفي آخر المطاف، قللت الشمس من شدتها ببطء، وهي تميل نحو الغروب خلف جبل ثور، قبالة مكة. لقد مال قرص الشمس حتى اختفى وراء خط الجبال السود، فهدأ الدعاء في صمت محسوس، أعقبته حركة خفيفة. وما أن غربت الشمس، حتى بدأ الموكب العظيم في لحظة بالتحرك للعودة. وحسبما أذكر، فما من كاتب وصف النفرة من عرفات. فعندما تحركت في ركب الملك، وأدرت لحاظي في المنظر، كان منظر الجمال هو الذي راعني. ففي الوادي الفسيح كله، الذي غدا في حركة مفاجئة نحو مكة، كانت صفوف الجمال وفيالقها هي التي استرعت انتباهي. لابد وأن كان هنالك ما لايقل عن ٥٠٠٠٠ منها، كلها سائرة للأمام في خطواتها السريعة الصامتة التي تميزت بها وسيلة النقل الرئيسة في الجزيرة العربية. لقد كان منظراً طيباً حقّاً. وما أن ازداد الغسق، وارتفع الغبار من حفيف الأخفاف حتى بدأت فيالقنا تفقد واقعيتها وتبدو كأنها جنود من البشائر السماوية، تتحرك بصمت وخفية، في الضوء الخافت المعلق الآتي من القمر فوقنا، ومعه المريخ والمشتري أمامنا، وفي ذيليهما الشعرى اليمانية ومنكب الجوزاء والعَيّوق.

وبالرغم من ضوء القمر لقد استحال علينا رؤية أي شيء بوضوح في ذلك الضباب المتحرك، وأجسام الرجال متشحة بالبياض قابعة على ركائبها

(١) الحج له أركان وواجبات ومسنونات من قام بها على الوجه الشرعي فيرجى له القبول من الله وهو أمر غيبي لا يعلمه إلا الله حتى لا يتكل الناس على أعمالهم. (المراجعون).

العملاقة. وتجاوزنا أعشاباً قصيرة وأشجار السَّلم ذات الشوك. وحين ضاق الوادي بين التلال المسودة، مررنا بسرعة بالجمال حاملة الهوادج، ومجموعات من المشاة، رجالاً ونساءً - بل إن بعض المجموعات كانت جالسة، ترتاح على الأرض كأنها على يقين من أن هذا الحشد السماوي سيمر فوقها من غير أذى. لقد كان مدهشاً جداً، ونحن لانكاد نرى شيئاً، أن تتحاشى الجمال بفطرتها كل العقبات التي في طريقها، بشرية كانت تلك أم غير ذلك، والتي سرعان ما خلفتها جحافلنا وراءها.

obeikandl.com

obeikandl.com

٣ - العودة إلى مكة

وبعد تجاوزنا الأعمدة الحجرية المحددة لحرم مكة، صعدنا الوادي مروراً بممر المأزمين. وهناك انفجر أمامنا منظر سحري، لمدينة ضخمة بآلاف من الأنوار، وأقواسها المضاءة في صفوف منظمة، والفوانيس الصغيرة معلقة فوق الأعمدة. لم يكن لهذه المدينة أثر من قبل عندما مررنا في الصباح. لقد نبتت فجأة في الوادي منذ الغسق. لقد كانت مزدلفة، حيث علينا أن نقضي الليل أسوة بالنبي ﷺ. واتجهت جماعة الملك إلى الجانب الأيسر من الوادي وتوقفت فوق سفح من الرمل غير بعيد عن المئذنة التي لم يكن معها مسجد. لقد أدخلت السيارات عنصراً من عدم الانتظام في المنظر العام كما أقلقت الناس في المساء، ولكن، فيما يبدو لم تقع حوادث. وبعد ذلك بقليل أسكنت الأسرة المالكة في الخيام المعدة لها.

لقد غدت السيارات عنصراً متزايداً في مناظر الحج. ففي الوقت الذي أكتب فيه، كان استخدام السيارات امتيازاً خاصّاً للأسرة الملكية والموظفين الكبار في المهام الرسمية[1]. ولكن في ١٩٥٥م رخص لدائرة أوسع من الناس، ثم في السنة التالية لها، رفعت كل القيود، وبلغ عدد السيارات المشاركة في الحج ٤٠٠ سيارة. ومنذ ذلك التاريخ كان عدد السيارات في تزايد مطرد، ولم تعد للحجاج الأجانب القادرين على هذا الترف أية حجة للشكوى، فيما يتعلق بالراحة.

لقد كانت همهمة الجمال في كل مكان، وكذلك نداءات الرجال لأصحابهم المفقودين - فرقة موسيقية حقيقية متنافرة الأنغام.

(١) كان هذا نتيجة لندرة السيارات في المنطقة في ذلك الوقت، وعدم قدرة معظم الناس آنذاك على تأمينها اقتصادياً، ولم يكن هناك ما أشار إليه المؤلف من وجود امتياز للأسرة المالكة والموظفين. (المراجعون).

إنه لأمر محير لي فعلاً أن يتمكن أي فرد ما أن يعثر على رفيقه في مدينة الليلة هذه التي نبتت فجأة كالفطر، التي لم يرها المرء نهار الأمس ولن يراها نهار الغد، لأننا سنغادرها فجراً قبل شروق الشمس.

والملك نفسه عسكر في الفضاء على أبسطة فرشت على المنحدر الرملي. وفي الوقت المحدد جيء بلحم الضأن والأرز على بضع صوانٍ ضخمة نشرت على بساط طويل لمتعتنا. فأكلنا بشهوة، وأكل بعدنا مرافقو الملك؛ ثم أمر الملك مساعديه بالذهاب لدعوة المشاة من الحجاج، فجاءوا بالمئات، جائعين ومتلهفين، ليأكلوا من مائدة الملك. كما رأيت بعضهم في حالات كثيرة يلفون في ثيابهم المتسخة بعضاً من الزاد للغد، ثم انصرفوا من حيث أتوا ببطون ممتلئة ودعوات عالية، ثم نمنا.

صحوت مرة ثانية فيما يبدو أنه كان منتصف الليل على أصوات محركات السيارات ورغاء الجمال. لقد كان الملك على بعد خطوات، غارقاً في تلاوته. وبعد ذلك بقليل، وإن كنت لا أزال مثقلاً بالنعاس، فإننا اصطففنا لصلاة الفجر، في نحو الثالثة صباحاً. ثم ركبنا وتوجهنا إلى مئذنة مزدلفة، حيث توقفنا، ونحن لانزال ركوباً، مصطفين لشعيرة من الدعاء والشكر بما هو مأثور عن النبي ﷺ حين يبلغ المرء هذا المكان في طريق العودة. لقد كانت تتدلى من المئذنة أنوار مقوسة ضخمة، وجماعة من الحجاج تبدو وكأنها ملتفة حولها وعلى البرج المجاور لها. كما كان آخرون يبحثون فوق رمال الوادي، وادي محسر، عن الحصيات التسع والأربعين، الواحدة منها أكبر من حجم البندقة، الضرورية لرمي " الجمرات " . وبهذه المناسبة، فإننا جمعنا حصياتنا من مكاننا الذي بتنا فيه - ويبدو أنه يجوز جمعها من أي مكان مما جاور مزدلفة، وإن كان وادي محسر هو المكان المنصوص عليه في الأثر - وصررناها بشدة في أركان إحراماتنا. وفيما بعد لاحظت كثيراً من الحجاج في منى يبحثون في الشوارع عن الحصى المطلوب

دون إدراك منهم للمغزى الحقيقي لجمع الحصيات من مزدلفة[١]. ويمكن للمرء فوراً أن يتخيل كيف أن ٥٠,٠٠٠ حاج يقذف كل واحد منهم تسعاً وأربعين حصاة في الجمرات -وسيتضح معنى ذلك فيما بعد- فقد أثروا تلال الحصى في منى التي ستنمو خلال قرون لتكون أكواماً بأحجام ضخمة، وبعض الناس يزعمون أن هذه الحجارة تختفي فور انتهاء موسم الحج[٢].

وبينما بدأ ضوء النهار يسطع علينا ببطء، أزيلت الأقواس المضاءة، وبعد انتهاء دعواتنا، واصلنا سيرنا صاعدين الوادي نحو منى. وهنا أو هناك كانت جمالنا تجفل فجأة عن شيء ما في الطريق، يثبت أنه جمل كان قد سقط ومات على جانب الطريق. كما لمحت مرة نقالة عليها شخص مريض أو جريح محمول. ولكني أقرر هنا بأنه خلال كل موسم الحج وإلى هذه النقطة، بل حتى عودتي الى مكة، لم أر أية علامة أخرى لأية إصابة في ذلك الحشد الضخم - ربما كان ١٠٠٠٠٠ حاج في المجموع.

وبخروجنا من تلك الحشود التي كانت قد خفت رويداً رويداً جئنا إلى منى، حيث استبدل الملك جمله بحصان فوراً، وواصل سيره صاعداً شارع منى إلى العقبة للرمي الواجب " للشيطان الأكبر "[٣].

كان معظم الناس قد نزلوا من دوابهم ليتبعوه، ولكني فعلت ذلك على جملي، الذي لم أتركه إلا بعد أن بلغ الزحام مداه وقاربنا غايتنا. وبعد أن أكملت ما تبقى من المسافة سيراً على الأقدام وصلت العقبة لأجد زحاماً رهيباً

(١) الصحيح أنه يمكن جمع حصى الجمار من أي مكان من مزدلفة، ومن منى أيضاً. (المراجعون).

(٢) هذه خرافة لا أساس لها من الصحة، والواقع أن الحصى التي يرمى بها تُجمع ثم تُفرق في أماكن مختلفة، وبعضها يبقى في مكانه. (المراجعون).

(٣) يقصد المؤلف العقبة الكبرى. إحدى جمرات العقبة، وقد تكررت تسمية الجمرات بالشياطين وهو خطأ، فيلاحظ ذلك. (المراجعون).

قد تجمع أسفلها، يرمونه بالحصى التي كانوا قد جاءوا بها من مزدلفة، سبع حصيات في هذه المرة. لقد كان الناس فيما يشبه النوبة وقد شغلوا أيديهم بهذه العملية الممتعة، وشفاههم تتحرك بعبارات اللعن[1]. لقد كان من المستحيل الاقتراب كثيراً لرمي حصياتي على ذلك الشيء. وربما استقرت حصياتي على الرءوس التي لم تحس بوقعها، لأولئك الذين كانوا أمامي.

حتى تلك اللحظة لقد كان ذلك هو نهاية الشعيرة بالنسبة لي، إذ وجدت الأمير عبدالله، أخا الملك، في سيارته عائداً إلى مكة للركن التالي من الحج، وكنت محظوظاً لأجد لي مكاناً معه. وفي أقل من نصف ساعة كنت في بيتي نفسه أستمتع بفطور خفيف قبل مواجهة الشعائر المكية التي ستكتمل وتثبت بها حجتي. إن الشروط الأساسية للحج هي:

(١) الإحرام، الذي كنت قد فعلته قبل نحو ست وثلاثين ساعة.

(٢) الوقوف بعرفات، الذي كان قد تم بسلام.

(٣) رمي "جمرة العقبة الكبرى" فوراً بعد العودة من عرفات، والذهاب إلى مكة للطواف والسعي والحلق أو التقصير وقص شعر الرأس.

وبعد إكمال الحاج الشعائر الثلاث من الشرط الثالث، يرتدي الحاج ملابسه العادية ويتحلل نهائياً من كل شروط الإحرام. وبإتمامه الشرطين الأولين فقط (تاركاً الثالث لفترة لاحقة) يمكنه التحلل أيضاً من لوازم الإحرام فيما عدا الجماع، لأنه لايكون إلا بعد إكمال الشرط الثالث. لذا فإن أولئك الذين لاتصحبهم نساؤهم فإنهم يؤخرون شعائر مكة حتى انتهاء أيام منى الثلاثة.

(١) ليس هذا من الحج في شيء، وإنما الوارد هو التكبير مع رمي كل حصاة. (المراجعون).

٤ - الشعائر بمكة

بالرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة صباحاً بقليل فإن الشارع الرئيس كان يفيض بالحجاج العائدين، الذين لابد أنهم قد حذفوا مرحلة مزدلفة وسافروا، على ظهور الجمال أو راجلين، طيلة الليل ليصلوا هنا في الوقت المناسب[١]. لقد كان الحرم مزدحماً، والمسعى، الذي يقاطعه الشارع الرئيس بميلان، كان مكتظاً بالناس الذين كانوا يعدون، أو يمشون، يتدافعون ويدعون، بهذه الطريقة أو بأخرى.

بعد أن أنعشت نفسي واسترحت لمدة من الزمن عدت بالسيارة للحرم بعد السابعة صباحاً بقليل لأتم الطواف والسعي قبل ارتفاع الشمس ارتفاعاً تحرُّ به الأشياء. واقتربت من باب إبراهيم، الباب الرئيس من الجانب الجنوبي للمسجد الحرام، ودخلت في مجموعة من المتسولين، الذين كانوا يلحون في الدعاء لي بقبول حجتي، ومقابل ذلك يأخذون الفلوس القليلة التي أعطيتهم بلا سرور.

وفي مكان آخر كانت حمامة من حمامات المسجد قد سقطت وبقيت بدمائها عند مدخل الباب، وهو منظر نادر، بينما كان الآلاف من أخواتها في سيرها اليومي الذي لا ينقطع من الحركة.

وبادرني بالكلام أحد السوريين، الذي كان موظفاً لدى نظام حيدر آباد الدكن، مستفسراً عن إمكانية الحصول على سفينة مبكرة إلى مصر، ثم شرع يشرح لي فكرته عن انقسام العالم إلى حزبين، حزب الله وحزب الشيطان. ولمحت في بطاقته المطبوعة التي قدمها لي، معبراً عن رغبته الشديدة في مناقشة هذا الموضوع معي بالتفصيل، أن صاحبي كان المؤسس (وربما كان رئيس

(١) لعل المقصود بهم الذين يسقط عنهم المبيت بمزدلفة من السقاة والمرضى والعاجزين. (المراجعون).

الوزراء) للأول، وذلك بالرغم مما علمته، ولدهشتي، أن الثاني -في رأيه- لن يخلو من عنصر مسلم !

وعلى أي حال، فإن تفكيري تاه في أشياء أخرى فخلصت نفسي وبما أمكنني من التأدب من صحبته ومضيت في شأني. وكانت أمامي الكعبة المعظمة (أشرف بقع المسجد) شبه كاسية.

إن من بين هدايا المسجد الحرام بمكة، التي كان يأتي بها المحمل المصري، كانت الكسوة، السوداء المطرزة بالحرير، المفصلة على حجم الكعبة المشرفة، ولتتدلى من سقفها. ففي كل عام، وفي اليوم التالي ليوم الحج تحل الكسوة الجديدة محل سابقتها، التي تصبح مكافأة لسادن الكعبة، الذي يقطعها إلى مربعات صغيرة تباع بيعاً مجزياً للحجاج. وبالكسوة فتحتان تناسبان الحجر الأسود والحجر اليماني[1]، المبنيين في موضعيهما من ركني الكعبة، بارتفاع مستوى الصدر، ويظلان مكشوفين دائماً. والأول منهما، ويعتقد أنه نيزكي، أقدس رموز الإسلام[2]، له تاريخ يرجع إلى إبراهيم، يقبله أو يحييه كل من يؤدي الطواف بالبيت. إنه محاط بإطار بيضوي من الفضة الخالصة، قد غدا سطحه ناعماً من أثر التقبيل الكثير خلال القرون.

والركن اليماني قطعة من الصخر مكسورة أصلحت، لايبدو أنه يعرف عن تاريخه شيء، يلمسه الحاج بيده كلما مر به في طوافه. وللكسوة فتحة ثالثة تناسب مدخل الكعبة المشرفة، ولكنها لها غطاء من المادة نفسها مطرزة بالحروف ومزينة بالذهب والفضة، يمكن طيه إلى أعلى حين يفتح الباب

(١) يعرف بالركن اليماني. (المراجعون).

(٢) لا يعد الحجر الأسود أقدس رموز الإسلام، بل إن الإسلام دين واضح لا رموز فيه. (المراجعون).

لدخول الحجاج. إن ما بداخل "بيت الله"، الذي كان مستودع الكنوز الغالية - الهدايا القيمة من الملوك والأمراء- بسيط ليس به ما يثير المرء. ومنذ الخلاف بين الحكومتين السعودية والمصرية، الذي كان قد أشير إليه سابقاً، فإن مصنعاً خاصّاً شيد في مكة لعمل الكسوة. ولكن بعد الصلح بين الحكومة المصرية والحكومة السعودية، عادت مصر لصناعة الكسوة للكعبة المشرّفة بمكة[1].

لقد كان العمال قد طووا من كسوة العام الماضي، البادية عليها آثار الجو والمطر، بضعة أمتار، مما كشف حجارة البازلت الصلبة التي بنيت منها الكعبة، وهي قطع من الحجارة مربعة، بأحجام غير متساوية، ملتصقة بعضها بالبعض بملاط رمادي اللون. إن الإطار الفضي للحجر الأسود برز مكشوفاً عن الركن كما لو كانت تلك الفتحة في صدر السفينة التي تدخل فيها المرساة ؛ وعلى الجانب الشرقي من الكعبة المشرفة، ما بين هذا الركن (في الشرق) والحجر اليماني، في الجنوب، كانت الكسوة الجديدة، المصنوعة في مصنع مكة، تدليها مجموعة من العمال واقفين على السطح، لتحل محل الكسوة القديمة. فكانت في لونها الأزرق الأسود اللامع من المخمل الحريري، بشريط ذهبي من الكتابة العربية لبعض الآيات القرآنية على نحو ثلثي ارتفاعها من الأرض، مناقضة تماماً للكسوة السابقة المتعرية المتدلية من الجوانب الثلاثة الأخرى، والتي كان العمال يجدُّون في إزالتها بما وسعهم من سرعة. وبينما أنا أراقب ذلك الأمر، أنزلت الطية الضخمة للكسوة الجديدة على الجانب الرئيس (الشمالي الشرقي) من الكعبة بسرعة هائلة لتغطي بثوبها أولئك الحجاج الذين كانوا يلحون في الدعاء متعلقين بعتبة الباب

(١) أنشأ الملك عبدالعزيز معملاً خاصاً بالكسوة في مكة المكرمة وعين الشيخ عبدالرحمن مظهر مديراً له، وتمكن المعمل الجديد من حياكة الكسوة لموسم حج عام ١٣٤٦هـ رغم ضيق الوقت واستمر في عمله إلى اليوم مع التطوير والتحسين. واستقبلت المملكة الكسوة من مصر بعد عودة العلاقات معها في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م لمدة قصيرة للدلالة على حسن العلاقات بين البلدين بينما واصل معمل الكسوة بمكة حياكة الكسوة. (المراجعون).

المفضض الضخم، الذي كان مفتوحاً آنذاك وبحراسة آل شيبة - وهم حملة مفتاح الكعبة بأمر الشارع[1] - وعندما تسدل جوانب الكسوة الأربعة يتوثق العمال من حسن كسائها للكعبة ويوثقونها بعضها ببعض، وهم على منصة خشبية دليت من السقف برافعة وبكرات. وآخر عمل يقام به هو تغطية باب الكعبة بالستار الثمين، المصنوع من الحرير والمطرز بخيوط من الذهب.

لقد كان عليّ آنذاك أن أطوف، سبعة أشواط حول الكعبة، بدءاً بتقبيل الحجر الأسود أو تحيته "بسم الله، الله أكبر". وقد وقف شرطيان، في لباسهما الرسمي، هناك لتنظيم الضغط المتزايد وتسيير الحركة. ولكي يتمكنا من ذلك كان لابد لهما من استخدام نفوذهما بحرية تامة. لقد كان المنظر حول هذا المكان -أقدس بقاع العالم الإسلامي- منظر اجتماع عظيم، إنه تنظيم انفردت به المبادئ الأساسية للإسلام، فهو وإن كان ديانة ديمقراطية واشتراكية بطبعه[2]، فإنه ينص على الفردية ويغرسها في النفس التي تجعل الذات الفردية في بعض الأوقات - وفي تلك الأوقات فقط - هي الأهم، فوق نداء المجتمع، والعرق، بل والأسرة. فكل مسلم، رجل، أو امرأة، أو طفل، مكلف شخصياً بالعمل لما يحقق خلاصه بأي ثمن. وذلك يعني، ليس مسئوليته فحسب وإنما الأعمال الواجب عليه القيام بها بصرف النظر عن نتائج ذلك عليه أو على الآخرين. إن حق الملك، أو الوطن، أو الأسرة يترك جانباً حينما يتعارض مع حق الله. فهؤلاء قد يعاقبون الفردية الضارة بمصالحهم، ولكنهم لاينقذون من النار. فهذه لابد من تجنبها بأي ثمن، ولا يمكن تجنبها -ولا يكون ذلك إلا برحمة الله - إلا بإخلاص فردي لله العظيم. إن المبدأ يحتوي على

(١) هذه من التنظيمات التي كانت موجودة في مكة المكرمة منذ الجاهلية وقد أقرها الرسول ﷺ. (المراجعون).

(٢) هذه من المصطلحات الحديثة ولا يمكن وصف الإسلام بها لأنه أعم وأشمل في مفهومه وأحكامه من كل التنظيمات البشرية. (المراجعون).

أعلى درجات الوطنية التي عرفها العالم ؛ فالمرء يدعو للهداية حين يكون عليه الاختيار بين شريعة الله - الحالة الروحية الخالدة في الآخرة التي تشمل كل ما في الكون - وشريعة البشر - الحالة التافهة الهزيلة قصيرة الأجل لعالم محكوم عليه بالفناء. ولعل التمرد الفاشل الذي كان قد قام به فيصل الدويش وأتباعه على ابن سعود في ١٩٣٠م خير مثال يستطيع المرء أن يعثر عليه في التاريخ الحديث لجهل في تطبيق مبدأ أساسي وجذري في الإسلام هو أن الإنسان يقرر وأن الله يقدر. إن فيصل، مات في السجن نتيجة الاعتقاد الذي دفعه للتمرد على مليكه، وهو يظن أنه يتقرب إلى الله بعمله.

لذا؛ فإن هذا الوضع لايكون شيئاً إن لم يكن ديمقراطيّاً واشتراكيّاً (إن جاز للمرء أن يستعير تعبيراً ساء استخدامه في السياسة)، وإلا فهو فردية تؤدي إلى فوضى واضطراب في لحظات العبادة؛ ففي مثل هذه اللحظات تتجاوز الطاقة الروحية السيطرة العقلية، والذين يؤمنون بالتعاليم الأساسية للإسلام لا يريدون غير ذلك إن التوفيق بين الطاقتين، اللتين قد تصطدمان في الأزمات، لاينبغي أن يكون فوق طاقة البشر. إن الأسلوب المنظم الذي كان عليه الحج المكي تحت النظام السعودي كان بحق شاهداً على قدر كبير من النجاح أمكن تحقيقه في هذا الاتجاه. فالحاج آمن على أي حال، في راحة، راضٍ، في وفرة تامة من الماء والعناية الصحية، محرر من أية رعاية باهظة وابتزاز مؤدب. إن الحكومة التي تؤمن إيماناً راسخاً بأن لا أحد يموت من غير قضاء الله، قد فعلت -وإلى حد كبير- أكثر مما فعلته أية حكومة سابقة لها وأقل تديناً منها، لخفض نسبة الوفيات بين الحجاج.

في ١٩٣١م كان هناك أربعون حالة وفاة فقط من ١٠٠٠٠٠ حاج؛ وشهدت كل سنة تالية لها تحسناً عن تلك النسبة، إذ كانت الوفيات مجرد خمس عشرة في ١٩٣٤م من ٨٠٠٠٠ شخص. وخلال السنوات الست عشرة لحكم ابن سعود

لم تكن هناك أوبئة في مواسم الحج - وهو جهد للمصلحة الطبية الحكومية يستحق الثناء.

إذن، ما الذي يضير إن أفلت الحاج مرة وفقد السيطرة على نفسه في أسمى لحظات انفعاله ؟ وما الذي يضير إن تجمهر وكسر، وإن كان القليل من ضبط النفس، مطبقاً بصورة واسعة، قد يخلق تدفقاً منتظماً لا يعوقه عائق، في المراكز العضوية الضيقة، للسمو وتحقيق الذات. فالحواجز والأبواب الدوارة قد تحول الضغط إلى أماكن أخرى للدخول والخروج، ولكن لا شيء أبداً قادر على تغيير شكل التجمع المحتشد في الوادي المكي، وإن كان السير الحثيث للتطوير قد قطع شوطاً كافياً من التحسينات المطلوبة دون أن يهدد تلك الرمزية في تلك العقيدة الإلهية.

عوداً من تلك الاستطرادة، إن الضغط حول الحجر الأسود منعني من أي محاولة للاقتراب، فبدأت أشواطي بالدعاء المأثور وتحيته من بُعد، لأجد نفسي فوراً محاطاً بالدوامة البشرية المهرولة حول المكعب نصف المكسي، والذي يبلغ محيطه الفعلي ٢٠٠ قدم تماماً، بما في ذلك الفراغ المسور بالرخام المعروف بحجر إسماعيل. ولابد أنه كان هناك ما لايقل عن ٥٠٠٠٠ شخص في الحَوض المغطى بالرخام من المطاف آنذاك ؛ إنه مشهد مثير للإسلام ذي البلدان المتعددة. ولكوني من سكان مكة فقد سرت بمفردي، ولي معرفة كافية بالأدعية بما يجعلني مرشد نفسي، بينما كان غرباء آخرون من مختلف أنحاء العالم، لا معرفة لهم بلغة أدعيتهم نفسها، يطوفون في مجموعات صغيرة أو كبيرة برفقة مطوفيهم، يرددون وراءهم في جماعة وبأصوات عالية مقاطع من دعاء كل شوط. فهنا النساء يسرن في شبه حماية من الصدام بأذرع أزواجهن وإخوانهن، ومن دفع الجموع المستعجلة، وهناك رضيع محمول على وسادة

مخملية في يدي مطوف، تتبعه الأم أو سيدة أخرى من أسرته، وهناك فئة معاقة بالشلل من خلق الله، تطوف ببيت الله على أربع، متجاهلة قدرها العاجل، حريصة على الخلاص النهائي، وهناك الأعمى، والأعرج، والمقعد، والأبتر تحت ضغوط إخوانهم الأسعد حظاً. ولما اقتربت من الحجر اليماني في الركن الجنوبي، الذي ينبغي على المرء أن يمسح أسفله بيده اليمنى وهو مارٌّ به، نزلت رجلي صدفة نزولاً غير ثقيل على رجل جار لي. ففي لحظة انتقم بركلة من رجله التي دست عليها على رجلي التي كانت داست على رجله. ولما التفت إليه في استغراب هادئ، لما للمكان والزمان اللذين هاجمني فيهما من حرمة، لمحت في الوجه البخاري الكالح قدراً من الشر والغضب ما لم أره ممكناً في وجه آدمي. "تت تت"، همست، "أستغفر الله"، وغبنا كل منا عن نظر الآخر إلى الأبد.

أكملت الأشواط السبعة في الوقت المحدد لها، وعدت حيثما بدأت - عند الحجر الأسود. ولتعذر الاقتراب منه بلا مشقة شديدة، حييت ذلك الرمز المقدس من بعيد وشققت طريقي بين الدوائر الخارجية من الزحام نحو مقام إبراهيم، أو لأقرب ما أمكنني منه، لأداء ركعتي الطواف احتفالاً باكتماله على وجهه الصحيح. وبعد ذلك فإن الشيء المتبع أن يقف المرء أمام باب الكعبة، وفي أقرب مكان منها ما أمكن - بل ملتصقاً بالجدار، والذراعان مرفوعان وعلى الكسوة نفسها في هيئة توسل البائس الفقير لله - يهمهم بما يريد من الأدعية بما يصلح حال المرء في الدنيا والآخرة[1]. وتركت هذه الخطوة من الإجراءات بسبب الزحام، وأنعشت نفسي بشربة من بئر زمزم المقدسة والتاريخية، مما يقدم للحجاج عادة في كوب من المعدن، يصب فيه من جرار

(١) هذا العمل ليس من أعمال الحج، ولا يلزم القيام به. (المراجعون).

من الطين كمثرية الشكل يحملها الزمازمة، الذين كافأتهم لما استحقوه بما يناسب تلك المناسبة الخاصة، وهو شلن لما يساوي نصف لتر من الشراب المبارك. وأنتهز هذه المناسبة لأقول إن جميع من كتبوا عن الحج في مكة، ولا أستثني من ذلك أحداً، قد أساءوا لهذا الماء بلا وجه حق. حقّاً، لهذا الماء طعم مرّ قليلاً، ولكنه من أخف الأنواع. وإذا ما تركه المرء إلى حين من الوقت في جرة من الطين، وكما اكتشفت، فإنه يكون له طعم جميل ومنعش - ومفيد وبهيئة مريحة للعمل الداخلي للجسم. فهو بلا شك أقدس مياه الأرض وأطهرها. إني لا أفهم تشويهاته لدى بيرتون، ووافيل، وإلدون، ورتر وغيرهم. ولفائدة غير العالم بالأمور، فإنه يطيب لي أن أضيف أن البئر الآن (وكما كانت لمدة طويلة من الزمن) محمية من أي تلوث ببناء يغطيها تماماً[1].

إن هذا الحائط كان ضرورياً بكل تأكيد، لما ثبت من حالات انتحار بعض الأشخاص برمي أنفسهم فيها توهماً منهم بأن ذلك يضمن لهم دخول الجنة. وإن كثيراً من الحجاج يأتون بالأكفان التي يودون أن يكفنوا بها ليغسلوها في ماء زمزم، ولكن ليس في البئر نفسها بطبيعة الحال.

وبهذه المناسبة، فإن أهمية بئر زمزم الواقعة على مقربة من الكعبة تظهر في السيرة المأثورة بأنها اكتشفتها هاجر بقدرة الله تعالى حين كانت هي وطفلها إسماعيل يكادان يموتان من الظمأ في الوادي القاحل. وبأمر من الله، بنى إبراهيم الكعبة في هيئة بيت الله السماوي، لتكون نواة المسجد الحرام، الذي

(١) لقد اختلفت بئر زمزم الآن كلياً عما كانت عليه في زمن المؤلف، فقد بُني لها مدخل في أسفل الصحن بالقرب من الكعبة ووضع عليها مضخات وجلب الماء منها في صنابير للرجال والنساء في أماكن مريحة في أنحاء المسجد الحرام. (المراجعون).

صار نفسه نواة مكة. إن مقام إبراهيم المذكور سابقًا، يعد البقعة التي أقام فيها أبو الرسل (وكان يدعو فيها دعاءه) وهو يبني الكعبة. وحجر إسماعيل، المذكور سابقاً أيضاً، كان موضع حضانة إبراهيم.

إن آخر ذرات الماء التي كانت في الكوب نثرها الزمزمي فوق رأسي ووجهي، وشددت بطني بحزامي استعداداً للسعي. وبعد خروجي من الحرم إلى المسعى، انضممت إلى الجموع المتجهة لرأس المسعى أو الساحة[1] - وهي تلة قديمة مبنية الآن، ولها بضع درجات عريضة من البازلت والجرانيت مزينة ببناء مقوس حديث نسبيّاً. وفي العهود السابقة كان بإمكان الواقفين في هذا المكان رؤية الكعبة، التي يتجه نحوها المرء بالدعاء المأثور لاستفتاح السعي وبأكف مرفوعة. أما الآن، فإن البيوت الواقعة ما بين ذلك، والسور، تحجب الرؤية الفعلية. وبعد الدعاء المأثور، يهبط المرء لبداية الشوط. لقد كان زحام الساعين رهيباً، ذاهبين آيبين في مجموعات كثيفة أو صغيرة، أو فرادى، بلا نظام أو أسلوب. وعلى المرء شق طريقه في الزحام بما وسعه، يتفادى هذا ويتفادى ذاك، تجنباً للمجموعات القوية. ففي الخطوات المئة الأولى يسير المرء في مشية حتى التقاطع، حيث يعبر المسعى طريق القشاشية، وامتداده بمحاذاة الجدار الشرقي للحرم إلى الحميدية أو مقر الحكومة. ومن هذه النقطة يحدد عمود غائر في جدار الحرم بداية القطاع الذي ينبغي قطعه هرولة، كما هو مأثور[2]. وفي الأيام التاريخية، كما في أيامنا الواسعة هذه، أيام السيارات، كان هذا المعبر مسار الشارع الرئيس في المدينة، ولابد أن هذه الهرولة كانت

(١) المقصود الصفا. (المراجعون).

(٢) حددت الآن تلك الأعمدة باللون الأخضر. (المراجعون).

ضرورة في المسعى[١]. وهناك عمود أخضر على يمين المسعى، مبني على جدار دكان، يحدد نهاية قطاع الهرولة، وطوله كله ثلاث وخمسون خطوة. وبعد ذلك يواصل المرء سعيه مشياً للخطوات، الثلاث مئة والست، المتبقية من الشوط؛ وهو الآن شارع واسع، مغطى، على جانبيه الدكاكين. حتى التل المعروف بالمروة، المشابه للصفا، ومثله في درجاته العريضة وبنائه المقوس. إن المسعى نحو ٣٨٠ ياردة تقريباً في الطول، بلط بالحجارة في عهد هذا الملك - وهو تحسين له على ما كان عليه في العهود السابقة من غبار متطاير يستحيل معه تنظيفه، وأوساخ مما يجعل من السعي كفارة فعلية[٢].

أثناء السعي يردد الحاج الدعاء المأثور للمناسبة، وفي المروة يدور نحو الصفا، ويقف على الدرجات بذراعين مرفوعين، ليعيد مرة ثانية الأدعية المأثورة، ثم يهبط عائداً إلى الصفا، وكلها سبع مرات، أربع من الصفا، وثلاث في الاتجاه المعاكس، يؤدي هذا المضمار، وفي نهاية الدور السابع تنتهي كل شعائر الحج الأكبر على وجهها الصحيح، كلها فيما عدا الحلق أو التقصير حسب الاختيار، يساعد المرء فيها جيش من الحلاقين يزحمون طرف المروة من المسعى، يبدو أن لهم سوقاً رائجة. لقد آثرت أن أتولى تقصير شعري بنفسي في البيت. وبعد أن أكملت مضماري ذي الألفين والست مئة ياردة - وكانت الساعة آنذاك التاسعة صباحاً، وقد بدأ النهار يميل إلى الحرارة -كنت في غاية السعادة حين حملتني سيارتي إلى هناك. ومن كل النواحي فإن حجتي الأولى أكملتها بأمانة وعلى وجهها الصحيح. وكان أصحابي ومعارفي خلال الأيام

(١) هذا استنتاج من المؤلف ليس له دليل. ويروى أن هاجر، أم إسماعيل، كانت تسرع في المشي من أجل طلب الماء أو البحث عن من يساعدها حتى إذا تعبت تركت الهرولة وبدأت تمشي. (المراجعون).

(٢) استمر تطوير منطقة المسعى في عهد الملك عبدالعزيز ثم في عهود أبنائه الملك سعود والملك فيصل والملك خالد وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد حيث أزيلت الدكاكين وأدخل المسعى ضمن تطوير المسجد الحرام وتوسعته التاريخية ووُضع له طابق علوي لاستيعاب الأعداد الكبيرة وأصبح مُكاناً مهيأ لراحة الحجاج والمعتمرين. (المراجعون).

التالية يدعون لي بقبولها وبالبركات المقرونة بها. لقد أصبحت "حاجّاً" بجدارة الآن، وهو وصف قليل الاستخدام في الجزيرة العربية نفسها، حيث يفترض أن يكون معظم الناس قد أدوا الحج في وقت ما أو آخر في حياتهم، وإن كان يقال -بما يحمله من أوجه الصحة- إن هناك، أو كان هناك إلى عهد قريب، رجالاً شيباً، من سكان مكة نفسها، وممن عاشوا فيها كل أعمارهم، من لم يؤد هذه الشعيرة المهمة! قد يبدو ذلك صعب التصديق. ولكن الأمور تغيرت الآن عما كانت عليه أيام الأتراك والشريف، حين كان دور المكي جعل الحج أمراً من أشق ما يمكن على الغريب الذي بين بواباتهم، بينما يكون هو نفسه قد تفادى الأخطار الحقيقية والمعاناة التي في طريق الحاج.

obeikandl.com

٥ - منـــى

قضيت الوقت هادئاً في البيت في حر ذلك النهار، ولم أمض في سيارتي إلى منى إلا في وقت متأخر من العصر، حيث وجدت الملك يكاد يكون وحيداً في قاعة الاستقبال الجديدة الفخمة. في كل العالم الإسلامي يحتفل بهذا اليوم، عيد الأضحى، إحياءً لقصة إبراهيم، ويبدو أنه لم يكن هناك جهود مبذولة لتحديد يوم العيد في العالم كافة. فالذي حدث في هذه المناسبة هو أنه بينما اتفقت لندن معنا في تحديد يوم العيد، اختارت الهند اليوم التالي (الأربعاء ٢٩ أبريل) ليكون الاحتفال بالعيد.

أما فيما يختص بمكة، فإن الشعائر التي وصفتها من قبل يبدو أنها تقسم اليوم بطريقة ما بحيث أن صلاة الفجر لا تقام أبداً أو تقام لجماعة صغيرة من الناس. وحسبما أعلم فإنه لم تكن هناك صلاة للفجر في الحرم نفسه[1]، وإن كان أولئك الذين أخروا الطواف والشعائر الأخرى التي تؤدى في مكة قد اجتمعوا (للصلاة) في مسجد الخيف بمنى. وبالإضافة إلى ذلك فإني قد فاتني الاحتفال بذبح الأضحية في الصباح. أما أضحيتي فقد ذبحت نيابة عني في اليوم التالي؛ وينبغي علي أن أضيف بأني خلال أيام إقامتي الثلاثة في منى فإني لم أشهد، ولم أدرك بأية طريقة ما غير مرضية، بل إني لم أر مكان الذبح نفسه، الذي أحسن القائمون على الأمر صنعاً بنقله إلى مسافة مناسبة من المخيمات الرئيسة للحجاج، بحيث أصبح معزولاً عن معسكرات التكارنة من المقيمين والزوار الذين لا يرون عيباً في أي شيء يؤكل أبداً. لقد رأيت فعلاً بعض رءوس الأغنام

---

(١) لعل قصد المؤلف يوم العيد حيث يكون الحجاج إما في مزدلفة أو في طريقهم إلى منى. لكن قوله إن صلاة الفجر لا تقام في ذلك اليوم في الحرم فإن ذلك غير صحيح؛ لأن هناك من أهل مكة من لم يحج فيذهب إلى المسجد الحرام لصلاة الفجر. (المراجعون).

ملقاة هنا وهناك، ولكن عدا ذلك ليس هناك شيء لا من رائحة عفنة أو أشياء متعفنة أنضجتها الشمس. لقد قامت السلطات الصحية بعملها في هذه الناحية خير قيام، كان ثوابهم أن نسبة الوفيات هذا العام كانت الأقل في كل الوثائق المحفوظة عن الحج إلى اليوم. والذباب، الذي نسمع عنه كثيراً ! أين كان ؟ لم يكن موجوداً قطعاً وكما هو واضح مثبت - سيأتي بعد ذلك بأيام، وذلك مما لاشك فيه، ولكن آنذاك سيكون كل الحجاج قد غادروا المكان، ولن يكون هناك أحد ما ليزعجه أو ليعاديه. فالمكان سيكون مهجوراً كما كان قبل أيام قليلة سبقت. وأخيراً لختم قصة بركات منى - ما أسعد أن ينام المرء في العراء تحت تلك السماء اللامعة بلا ناموسية، ولا ناموس ليقض مضجع النائم.

ورد في الأثر أن النبي ﷺ قضى يوم الأضحى نفسه واليومين التاليين في منى[1]. لذا؛ فإن هذه السنة أصبحت جزءاً من برنامج الحج، ولكن ذلك ليس لزاماً، إلا لما يكفي الحاج نفسه أو من يوكله ليرمي سبع حصيات على كل واحدة من العقبات الثلاث، في وقت الزوال أو بعده بقليل، من اليومين الثاني والثالث. بل إن ترك شعيرة الرمي في هذين اليومين (وإن كان ذلك الترك لايشمل رجم العقبة الكبرى في اليوم الأول ؛ فهو عنصر مهم في الحج) لايبطل الحج، وإن كان لابد من التوكيل له، أو التكفير عنه بهدي من الغنم أو الماعز[2].

(١) ورد في حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يوم حين صلى الظهر ثم رجع إلى منى فمكث بها أيام التشريق، رواه أحمد وأبو داود. ويفهم منه أن الرسول ﷺ قضى يوم النحر وأيام التشريق في منى. وعلى العموم فإنه يجوز التعجل في يومين لكن بشرط الخروج من منى قبل الغروب. (المراجعون).

(٢) الهدي يقدم من أصناف بهيمة الأنعام وليس فقط مما ذكر. (المراجعون).

وفي واقع الأمر، فإن الغالبية العظمى من الحجاج يقيمون بمنى لتلك الأيام " لتجفيف الجلد " ، محتفلين ومستريحين من تعب الحجة نفسها - إنها وبكل أمانة امتحان عسير للنساء والمسنين والصغار جداً. إن الفضاء في الوادي بين السلسلتين السوداوين لثبير والمفجر قد امتلأ بمدينة فعلية من الخيام طغت على البيوت الحجرية القليلة بالقرية، التي سكنها أولئك الذين كانوا قادرين على دفع مبالغ طائلة للإقامة فيها بدلاً من الخيام. لقد أصبح الشارع الرئيس سوقاً مزدهرة حقّاً، حيث كان الباعة المتجولون للسلع الرخيصة والتذكارية، وموزعو المشروبات الباردة (الموسم موسم المشمش والخيار المحلي) قد نشروا سلعهم على طاولات أو أقمشة على الأرض على جانبي الشارع. لقد كان كل خامس أو سادس من أولئك الجالسين على الأرض تاجر صرافة، يشتري أو يبيع الروبيات والفلوس أو العملات الأخرى بكميات كبيرة مقابل الريالات الفضية والهللات (عملات من النحاس) الحكومية السعودية.

وطيلة اليوم، وبخاصة في النسمة الحبيبة في الصباح الباكر والأمسيات، تعج شوارع منى بأعداد هائلة من الناس ذاهبة آيبة. وخلال ذلك، وفي فترات متباعدة، تشق ناقلة ماء ثقيلة طريقها ببطء، مفسحة الطريق أمامها برشاش عريض للماء، مخلوط بمطهر، لتثبيت الغبار والقضاء على الجراثيم في عملية واحدة. وفي نقطة ما في الجزء الأعرض من الشارع، نحو منتصف المسافة ما بين العقبتين كانت ماكينة بتر، مزودة بمضخة ذات سلسلة من نوع أكواتل، تعلو حوضاً أرضيّاً ضخماً تحت الأرض (تصب فيه سيارة ماء من حين لآخر). والتف حولها اليوم كله جمهور كبير من ظمأى الفقراء بعلب وقدور، من كل شكل وحجم، يعبئها لهم موظف للبلدية، وهو جالس فوق مخرج الماء

المتدفق، بمرح دون كلل أو ملل يصب الماء تارة في العلب وتارة أخرى فوق رءوس الجمهور أسفله، أو أجسامهم، وذلك مع ضحك الجميع وسرورهم.

وعلى نحو بضع يارادات من ذلك المشهد للعمل الخيري، كان الملك المحروم[1] يطل من الطبقات العليا للقصر الذي وضعته تحت تصرفه الحكومة السعودية لممارسة ديمقراطية حقة تحت رعاية الحكم الفردي الكامل الوحيد في العالم الحديث، وهو حكم فردي خففت من مطلقيته شريعة الله. إنه كحفيد لخليفة عثماني من أيام المجد الخالية، وشاب ربما كان أكثر تعوداً على ميادين التنس وكازينوهات الريفييرا منه على متاعب الحج، لعله كان لديه مما ينساه أو يغفره أقل مما كان لمن كان قبل عهد قريب لابساً التاج، ويحلم بلبس الرداء قبل أن يخضع لإغراءات الحياة الغربية. ولعل أمان الله خان، ملك الأفغان السابق، قد لمح بحزن شديد من بين الزحام في الشارع أسفله بعضاً من رعيته السابقين. ولعله، وهو ينظر، قد تساءل إن كان القدر قد قضى عليه أم أنه لايزال ينسج على شاكلته نمطاً للمستقبل. "إن الأمل يظل حيّاً في صدر الإنسان"، ولكن الضيوف الملكيين للملك السعودي، إلى جانب أولئك القلة من الضيوف البارزين من الهند ومصر، ربما استيقنوا بأن جوهر الخلافة، إن لم يكن ظلها، قد انتقل - ومن يدري، لعله للأبد ؟ - إلى حوزة الأسرة الجديدة، العربية.

وفي الشرق من الوادي، وراء تجمع خيام الحجاج، جلس ابن سعود في قاعة استقبالاته يصرف أمور الدولة يستلم التقارير ويصدر أوامره لحكم بلاده. وكان هناك هاتف يصله بمكة وجدة ؛ وفرع لمكتب البريد والبرق يأتيه بالأنباء من كل حدب وصوب ؛ وكانت رئاسة الإدارة الصحية قد اتخذت مقراً في

(١) المقصود به أمان الله خان كما يفهم من سياق الحديث لاحقاً. (المراجعون).

المستشفى المحلي لإحاطته علماً بالإحصاءات الحيوية الضرورية لخير العالم، ذلك لأن الحج إلى مكة قبلة أنظار عالم أوسع من الجزيرة العربية وحجاجها. بل إن وزارة الخارجية كانت هناك بكامل قوتها في خدمة الملك. إن العمل اليومي المعتاد كان سمة كل يوم. لكن الرعاية الخاصة لأمر الحج لم تحل دون الاهتمام بالمسائل الأخرى.

وثمة أمر، دنيوي صرف ذو دلالة اقتصادية عاجلة، بدا خلال تلك الأيام طاغياً على كل شيء آخر، وإلى حد ما ألقى ظلالاً كئيبة على موسم الحج. فمكة والمدينة، بطبيعة الحال، كانتا في عطلة، وقد أغلقت كل محلاتهما التجارية وتوقف العمل التجاري، بينما أصبحت منى في الوقت الحاضر هي القلب التجاري للحجاز. لكن منى، ولسبب ما، أصابها ذعر حول العملة المحلية. فالقرش النيكل للإدارة الحجازية - النجدية (اسميّاً : ٢٢٠ للجنيه الذهبي الواحد) انخفضت قيمته فجأة، وبدأ الذعر يلقي ظلاله في أماكن بعيدة مثل المدينة وينبع. بل إن الحكومة نفسها، وفي لحظة ما، أدركها طوفان الكساد الاقتصادي، وأصبحت تفكر في تثبيت قيمة العملة النيكل بتخفيض كبير منعاً لأي هبوط أكثر. ولحسن الحظ، كانت الغلبة لنصائح أكثر حكمة، فأمكن إيقاف الذعر بإجراءات إدارية قوية إلى حين اتباع سياسة أخرى ثابتة، يقع الحديث عنها وعن تطورها ومستقبلها خارج مجال هذا السجل.

لقد كانت الشعيرة الوحيدة لليومين الثاني والثالث هي رجم الجمرات الثلاث. هذه الجمرات الثلاث بمنى تحدد المواضع التي يقال إن عدو البشرية كان ظهر فيها لإبراهيم ليغويه ويثنيه عن طاعة الله، حين كان بأمر من الله قد أخذ ابنه (إسماعيل في السيرة النبوية) إلى مكان التضحية. ومن ذلك الوقت وإلى

يومنا هذا، وقريباً من "العقبة الكبرى" وعلى السفوح الصخرية إلى يمين[1] الممر والمرء متجه إلى مكة، تقف مقصورة بسيطة متهدمة تحدد البقعة التي رفع فيها إبراهيم بصره، ليرى فرج كربته، حيث أنزل الله برحمته كبشاً ليضحي به بدلاً من إسماعيل، كقربان يقدم لله الذي امتحن عبده ووجده قوياً. ويبدو أن كثيراً من الحجاج، وقد فضلوا برودة الصباح وآخر العصر للقيام بالمهمة التي تقتضي في كثير من الأحايين السير الطويل والتدافع، قد تجاهلوا حقيقة أن الوقت المحدد لأداء هذه الشعيرة هو وقت الزوال لكلا اليومين. بل إن الرمي، وكما يبدو، كان يحدث في كل الأوقات، من الفجر حتى الغروب. كما أن بعضاً من فرقة الملك النجديين، ومن تابعيه، حرصاً منهم على الذهاب إلى مكة في أسرع وقت ممكن من اليوم الثالث، تدافعوا خارجين من المخيم الملكي لهذه المهمة حين أحس الملك بما قد حدث فعجل بإرسال رسله إليهم آمراً لهم بالرجوع إلى خيامهم. والذي يبدو أنه لاشك فيه هو عدم الرمي قبل بدء الشمس بالزوال عن كبد السماء، وقد جاء اقتراح بأن يعلن ذلك بطلقة مدفع. إن أي وقت بعد الزوال وقبل الغروب جائز فيما يبدو، وكلما قارب الزوال كان أفضل. وفي تلك الساعة يكون منظر الزحام عند الرجم رائعاً حقّاً - جمع كبير من الناس يتدافعون لكي يصلوا إلى أقرب مكان لرمي حصياتهم، يدفع بعضهم بعضاً للأمام وللخلف، مجموعة خارجة راضية عن نفسها بعد أدائها للرجم تلاقي مجموعة أخرى، من إخوانهم المندفعين، قادمة. ويشق الجميع من حين إلى آخر موكب لأحد أفراد أسرة الملك عبدالعزيز قادماً على فرسه تصحبه حاشيته متجهة إلى المرجم. وعلى الرمز جلس أو وقف جنديان، لحفظ النظام وسط هذه الجموع المتدافعة، يقضيان وقتهما يبتسمان بطيبة وهما يروغان من حصيات المؤمنين سيئة التهديف. إن حفظ النظام

(١) يعرف هذا المكان بمر الكبش إلى هذا الوقت. (المراجعون).

مستحيل. وإنه لأمر يثير العجب ألا تقع إصابات خطيرة تفسد سعادة جموع غفيرة جاءت لتحيي مثالاً تاريخيّاً للإخلاص.

وهكذا، في اليوم الثالث من الاحتفال، ونحو الغروب، تم رمي آخر الحصيات وانتهت شعائر الحج الأكبر. وترك الناس المرجم في سلام حتى عام قادم؛ وتدفقت الجموع من منى إلى أسفل الوادي، نهر لاينقطع من الرجال والنساء والأطفال، راجلين أو راكبين، مرهقين ولكنهم سعداء، وفوق ذلك كله طاهرين من آثام الماضي - ذلك العبء الثقيل الذي كانوا جميعاً يحملونه، حتى تلك الأيام.

وكانت هناك بدوية، محجبة في خمارها عن مطالعة الرجال، متلفعة بثوبها المتواضع الذي يخفي قوامها، تخب بجملها وبحبور وسط الجموع السائرة في بطء، ما بين راجل أو محمول على محفة، لقد كانت على ظهر جملها النحيف، بلا سرج أو رسن. وبينما كانت سيارتي تقلني إلى بيتي بين جموع الحجاج، قلت لنفسي إني أرى فيها وفيما حولها روح الجزيرة العربية تشق طريقها في شرايين الإسلام.